OPEN ACCESS
Received: 09 -03 -2024
Accepted: 16- 07-2024

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

The Complaint in the Diwan al-Mufaddaliyyat: A Stylistic Study

Dr. Daifallah Bin Saleh Hasan Al-Zahrani *

ALZAHRANID@ksau-hs.edu.sa

Abstract

The research aims to trace the theme of complaint across different eras and identify its locations and various manifestations in the Diwan *al-Mufaddaliyyat*. The study is structured with an introduction, followed by an exploration of the purposes of complaint, starting from the pre-Islamic era, through the early Islamic and Umayyad periods, and concluding with the Abbasid era. The analysis then focuses on the instances of complaint in the Diwan under study. The research finds that complaint poems can either stand alone or be intertwined with other themes within a single poem. Regardless of the context, complaint reflects the poet's suffering, evident in either a complete poem or variously sized segments. Even when embedded within a poem with other themes, the influence of pain and grief that motivate the complaint is invariably present. The poet's skill is evident in their seamless transitions between themes within a poem. Complaint poetry authentically captures the poet's suffering without falsification, driven by genuine motives that convey the pain and sorrow experienced by the poet, ensuring an honest transfer of poetic experience to the reader. Complaint shares similar motives with lamentation, reflecting the anguish of the human soul through its sorrows and pains.

Keywords: Poetry of Complaint, Poetry Selections, Sincerity of Feelings, Arabic Poetry.

* Assistant Professor of Literature and Criticism, Department of Humanities, College of Sciences and Health Professions, King Saud Bin Abdulaziz University for Health Sciences, Saudi Arabia.

Cite this article as: Al-Zahrani, Daifallah Bin Saleh Hasan. (2024). The Complaint in the Diwan al-Mufaddaliyyat: A Stylistic Study**,** *Arts for Linguistic & Literary Studies*, *6*(3): 184 -203.

© This material is published under the license of Attribution 4.0 International (CC BY 4.0), which allows the user to copy and redistribute the material in any medium or format. It also allows adapting, transforming or adding to the material for any purpose, even commercially, as long as such modifications are highlighted and the material is credited to its author.

(EISSN): 2708-5783 ISSN: 2707-5508
DOI:https://doi.org/10.53286/arts.v6i3.2070

الآداب
للدراسات اللغوية والأدبية

OPEN ACCESS
تاريخ الاستلام: 2024/03/09م
تاريخ القبول: 2024/07/16م

الشكوى في ديوان المفضليات: دراسة أسلوبية

د. ضيف الله بن صالح حسن الزهراني *
ALZAHRANID@ksau-hs.edu.sa

الملخص

يهدف البحث إلى تتبع الشكوى من خلال العصور المختلفة. والكشف عن مواضع الشكوى ومجالاتها المختلفة في ديوان المفضليات. وقد اقتضت طبيعة البحث تقسيمه إلى مقدمة، ثم تتبعت بعد ذلك غرض الشكوى ابتداء من العصر الجاهلي مرورًا بعصر صدر الإسلام والأموي، وانتهاء بالعصر العباسي. ومن ثم تحليل مواضع الشكوى في الديوان محل الدراسة. وقد توصل البحث إلى أن المتتبع لمقطوعات الشكوى عامة إما أن يجدها موضوعا مستقلا، أو متداخلة مع أغراض أخرى ضمن قصيدة واحدة، وسواء أكان في هذا المضمار أم ذاك فإن الشكوى تبقى معاناة يكابدها الشاعر تخرج آثارها خلال قصيدة متكاملة أو خلال مقطوعة مختلفة الأطوال، فالأبيات وإن كانت ضمن قصيدة غير مستقلة بالشكوى، فإن أثر الألم والحسرة الباعثين على الشكوى سنجده ظاهرا لا محالة في الأبيات المقصودة، ولعل براعة شاعر ما تظهر من خلال سلاسة الانتقالات من غرض إلى آخر عبر قصيدة واحدة. وأن شعر الشكوى يسجل صدق معاناة الشاعر دون زيف أو خداع، فبواعثه كفيلة باستدرار ما يعالجه الشاعر من ألم وحسرة تكفلان نقل تجربة شعرية صادقة عند المتلقي، إذ يتوافر للشكوى ما يتوافر للرثاء من بواعث تعكس أوجاع النفس البشرية من خلال أحزانها وآلامها.

الكلمات المفتاحية: شعر الشكوى، المختارات الشعرية، صدق المشاعر، الشعر العربي.

* أستاذ الأدب والنقد المساعد - قسم العلوم الإنسانية - كلية العلوم والمهن الصحية - جامعة الملك سعود بن عبدالعزيز للعلوم الصحية - المملكة العربية السعودية.

للاقتباس: الزهراني، ضيف الله بن صالح حسن. (2024). الشكوى في ديوان المفضليات: دراسة أسلوبية، *الآداب للدراسات اللغوية والأدبية*، *6*(3): 184-203.

© نُشر هذا البحث وفقًا لشروط الرخصة Attribution 4.0 International (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أُجريت عليه.

المقدمة

كان الشعر العربي وما زال حلقة وصل تربط حاضر الأمة العربية بماضيها، فالشعر مرآة حقيقية تعكس طبيعة الحياة العربية على جميع مستوياتها تقريبا. هذه الطبيعة المتنوعة في تشكلاتها أسهمت أيضا في تشكّل أغراض الشعر وموضوعاته، فنجد القارئ للأدب العربي يتنقل بين أغراض الشعر المختلفة من نسيب وفخر وهجاء ورثاء، إلى غير ذلك من الأغراض الشعرية المختلفة.

ومن هذه الأغراض الشعرية غرض الشكوى الذي لا تكاد تخلو منه مرحلة من مراحل الشعر المختلفة عبر أزمنة الشعر القديمة والحديثة، فشعر الشكوى مرتبط بالحالة الإنسانية التي تمر بمراحل مختلفة من حياتها، فيجتاحها الحزن ويصيبها الكدر كما يمر بها الفرح ويغلبها السرور.

وشعر الشكوى من الأغراض الصادقة، ونستطيع القول بأنه" فيض تلقائي لمشاعر قوية" (إسماعيل، 1401، ص 218)، ولعله يشارك الرثاء في ذلك، فهذان الغرضان يحملان من الصدق والجمال ما لا يحتمله غيرهما من الأغراض الشعرية المختلفة من مديح وغزل وفخر، ولعل ذلك عائد إلى ارتباطهما بآلام النفس ومعاناتها التي لا يكاد يندس من ورائها زيف أو تملّق. وكذلك "لأنه يصدر عن مؤثر داخلي عميق باللوعة والفقد، فليس هناك حوافز خارجية تدعمه مثل شعر المديح مثلا" (باقازي، د.ت، 373).

والشكوى مِن قولهم: " شكا الرجل أمره يشكو شكوا، وتشاكى القوم :شكا بعضهم إلى بعض. وشكوت فلانا أشكوه شكوى وشكاية وشكية وشكاة إذا أخبرت عنه بسوء فعله بك، فهو مشكو ومشكي والاسم الشكوى .قال ابن بري :الشكاية والشكية إظهار ما يصفك به غيرك من المكروه، والاشتكاء إظهار ما بك من مكروه أو مرض ونحوه"(ابن منظور، 1414: 14/ 439).

هذا تعريفها في اللغة. أما في الاصطلاح فقد تعددت التعريفات لدى المعاصرين، فمنهم من يرى أن الشكوى" فن من فنون الشعر الوجداني العميق، وهي بعد ذلك لون من ألوان الشعر المتجدد؛ لاتساع نطاقها بين الشعراء؛ نتيجة للحياة الاجتماعية القاسية في ذلك العصر، وبخاصة شكوى الزمان أو الدهريات، وهناك فرع من فروع هذا الفن شكوى الأهل، والأصدقاء، وندرة الوفاء، واختفاء المعروف بين الناس"(الشكعة، د.ت، ص 358).

ويرى آخر أن الشكوى "إظهار ما يكابده المرء من ألم نفسي، أو جسدي، ناتج عن الظلم والقهر، وسيطرة قوى خارجة عن إرادته، ما يقف أمامه عاجزا، لا يستطيع له ردا" (يعقوب، 1430، ص 144).

وسواء أكان هذا التعريف أم ما سبقه فإنه لا يخفى على القارئ أنهما يجتمعان في أن الشكوى إنما تظهر في لحظات الضعف والانكسار التي يظهر من خلالها صدق الشعور ومن ثم صدق المقول. فهي لا تأتي

متكلفة متصنعة، بل صادقة تضج بالحقيقة وصدق التجربة؛ لأنه "لا بد أن يتوافر في التجربة صدق الوجدان، فيعبر الشاعر فيها عما يجده في نفسه ويؤمن به" (هلال، 1973، ص 287).

ولقد استعملت الدراسة المنهج الأسلوبي الذي يعد من أهم المناهج النقدية الحديثة المهتمة بمقاربة النصوص الأدبية وتحليلها، فقد بدا تطور الدراسات الأسلوبية واضحًا وسريعًا في الدراسات الحديثة، وقد اشتد عودها تبعًا للتفاعل الحضاري مع الدراسات الغربية، فالأسلوبية كفيلة بالكشف عن أسلوب الأديب، والمواطن التي يستقي منها أفكاره داخل النص، وهي كذلك عادة ما تكون كفيلة بالكشف عن التوجه اللغوي والأدبي للمبدع، وقدرته في توظيف اللغة فيما يخدم هذا التوجه.

ويظل موضوع الشكوى محور عمل العديد من الدارسين للشعر العربي، والحقيقة أني قد اطلعت على العديد من الدراسات التي ناقشت موضوع الشكوى عبر اتجاهات مختلفة، منها ما يكون عبر الاتجاه الزمني، ومن أمثلته:

- **الشكوى في الشعر الجاهلي، لقحطان رشيد التميمي**، والذي درس من خلال بحثه أثر الظلم في استنطاق الشكوى، وكذلك ظهور الشكوى من أثر الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وناقش الحنين وأثره في بروز التشكي عند الشاعر.
- **شعر الشكوى في العصر الأموي، لعلي أحمد عبد الله**، وقد تتبع باهتمام أنواعا مختلفة من التشكي، فنجده يدرس الشكوى عند المرأة، والشكوى من الدهر، والشكوى من الأحوال الاقتصادية والاجتماعية. بل نجده يغوص في الشعر متتبعا مواضع الشكوى داخل النوع ذاته، فهو يدرس الشكوى من المرأة في شعر الغزل، والصعاليك، والفقهاء، والخلفاء.

ومن هذه الدراسات ما يناقش الشكوى عبر الشاعر نفسه، ومن ذلك:

- **شعر الشكوى عند أبي العتاهية وناصر خسرو القبادياني، لعباس يداللهي وزينب رضابور** (هلال، 1973، ص 287)، وهي دراسة موضوعية مقارنة ناقش فيها الدارسان منطلقات الشكوى عند الشاعرين، فينطلق أبو العتاهية في شكواه من ذم الدهر والخوف من الموت، وينطلق ناصر خسرو من التدهور في الظروف الاجتماعية والدينية؛ نتيجة ما راج في المجتمع من التدهور الخلقي ومظاهر الحرمان والاعتداء على الحقوق.
- **الشكوى في شعر حمزة شحاته، لفهد عويض العقيلي**، وهي رسالة ماجستير، تحدث الباحث من خلالها عن بواعث الشكوى عند الشاعر محل الدراسة، مرورا بالصور الشعرية المستعملة في شعره، والظواهر الأسلوبية في شكواه.

ومع ذلك فإني لم أطلع على موضوع الشكوى تحديدا من خلال المدونات الشعرية وفي ديوان المفضليات خاصة، فوجدت هذه الدراسة ملمحا حديثا أضيف به دراسة جديدة في موضوع الشكوى عامة ومن خلال مجالات الشكوى في ديوان المفضليات تحديدا.

مراحل الشكوى:

مر غرض الشكوى في الشعر العربي عبر مراحل مختلفة شأنه شأن الأغراض الأخرى من الشعر، ولعله من البداهة أن يكون ذلك؛ فارتباط الشكوى بالحالة الإنسانية كفيل بأن يكتب لشعر الشكوى الاستمرار عبر العصور المختلفة، ولعلنا نعرض في إلماحة سريعة بعض نماذج الشكوى عبر العصور المختلفة.

مرحلة العصر الجاهلي:

تنتشر ظاهرة الشكوى في العصر الجاهلي لتتداخل مع أغراض مختلفة للشعر، "وشكوى الشاعر الجاهلي عموما تتصف برهافة الحس، وقوة الشعور، وصدق التعبير، وأكثر معانيهم في القريب، والزمان، وسوء الحال، والكبر، والحبيبة" (رشيدو، 1995، ص 159). فالشعر الجاهلي يمثل سجلا شاملا لطبيعة الحياة الجاهلية في مختلف شؤونها، فكانت القصيدة الواحدة تضم في طياتها عددا من أغراض الشعر المختلفة، وبذلك لم يكن للشكوى طريق خاص بها. ومن ذلك ما نجده عند امرئ القيس حين يقول (الأنباري، 1382، ص 74، 75):

وليل كموج البحر أرخى سدوله علي بأنواع الهموم ليبتلي

فقد جاء هذا التشكي بعد وقوف على الأطلال المندثرة وبكاء عليها، ثم تشبيب بالحبيبة، مما يعطي دلالة واضحة على عدم اختصاص القصيدة بغرض الشكوى منفردا. والشاعر هنا يشكو ظلمة الليل الكثيف الذي يوحي بموج البحر في كثافة ظلمته حين ينسدل ويرخي ستوره بأنواع مختلفة من الهموم والأحزان ليبتليه، وينظر ما عنده من الصبر والجزع (الأنباري، 1382).

ويشكو زهير بن أبي سلمى طول عمره مع التكاليف المصاحبة له فيقول (بن أبي سلمى، 1408، ص 110):

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبا لك يسأم

ويشتكي عنترة بن شداد من دهره وأقاربه فيقول (التبريزي، 1412، ص 35):

أعاتب دهرا لا يلين لعاتب وأطلب أمنا من صروف النوائب

وتوعدني الأيام وعدا تغرني وأعلم حقا أنه وعد كاذب

خدمت أناسا و اتخذت أقاربا لعوني، ولكن أصبحوا كالعقارب

وهكذا يمكن اعتبار الشعر الجاهلي مرجعا لطبيعة الحالة النفسية وشكواها في تلك المرحلة.

مرحلة العصر الإسلامي والعصر الأموي:

تمثل القصيدة العربية في العصر الإسلامي امتدادا لأغراضها وموضوعاتها بخلاف تلك الموضوعات التي طرأت عليها نتيجة أثر الإسلام، وقد تشترك رؤى النقاد في أن القصيدة الجاهلية قد بلغت ذروة سنام الشعر في جميع العصور، إلا أن ثمة رأيا لابن خلدون يعارض هذه الرؤية حين يقول: "إن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منثورهم ومنظومهم. فإنا نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق ونصيب وغيلان ذي الرمة والأحوص وبشار ثم كلام السلف من العرب في الدولة الأموية وصدرا من الدولة العباسية في خطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للملوك أرفع طبقة في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كلثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد، ومن كلام الجاهلية في منثورهم ومحاوراتهم، والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان بذلك للناقد البصير بالبلاغة. والسبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث" (ابن خلدون، 1401: 1/ 798).

قد يظهر التشكي في هذا العصر ضمن أغراض أخرى، وفي الوقت نفسه قد يظهر مستقلا غير ممتزج بأي غرض آخر. فمن مظاهره أنه يستند على أغراض أخرى، فقد نجده ضمن غرض الرثاء" الذي ازدهر أيما ازدهار، وأقبل عليه الشعراء إقبالا شديدا؛ نظرا للظروف الجديدة التي عاشها العرب في ظل الصراع الدامي، الذي تفجر عميقا شديدا بين المسلمين والمشركين" (التميمي، 1971، ص 716-728). ومن ذلك ما نجده من شكوى المسلمين لفقدهم أبطالهم من الشهداء، كما نجده عند كعب بن مالك يرثي حمزة بن عبد المطلب بعد أحد، حيث" كان استشهاد حمزة صدمة عنيفة بالنسبة لكعب، فقد رثاه بقصائد تفيض بالشعور الصادق والعواطف المتأججة، وعبر فيها عن نفس مكلومة، هدها الهم، وضعضعها الحزن. فيقول (العاني، 1410، ص 112):

ولقد هددت لفقد حمزة هدة ظلت بنات الجوف منها ترعد

ولو انه فجعت حراء بمثله لرأيت راسي صخرها يتبدد

كما نلحظ أيضا أثر الإسلام في أشعارهم حين "يتوجهون بشكواهم لله عز وجل، فهو مدبر الأمور كلها سبحانه، يقول خبيب بن عدي - ﷺ - حين حاول الكفار صلبه (الدبل، محمد سعد، 1431، ص 250):

إلى الله أشكو غربتي ثم كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي"

وفي الباب ذاته نجدهم يبثون شكواهم من ألم الفقد إلى الله وحده سبحانه، بعد أن اتضحت عندهم فكرة الفناء والخلود، وتيقنوا أن الله وحده هو مصرف الأمور، وفي ذلك يقول مسعود أخو ذو الرمة في رثائه (الشكعة، 1418، ص 299):

إلى الله أشكو لا إلى الناس أنني ... وليلي كلانا موجع مات واحده

وفي الجانب الآخر نجد المشركين يشكون فقد ذويهم من خلال مرثيات تفيض بالحزن والألم إبان غزواتهم مع المسلمين، فنجد الحارث بن هشام يبكي أخاه أبا جهل ويظهر جزعه لفقده، ويكشف عما يعانيه بعده من ضعف وذل وهم وغم، فيقول شاكيا باكيا (التميمي، 1971، ص 716-728):

ألا يا لهف نفسي بعد عمرو ... وهل يغني التلهف من قتيل

يخبرني المخبر أن عمرا ... أمام القوم في جفر محيل

وكنت بنعمة ما دمت حيا ... فقد خلفت في درج المسيل

كأني حين أمسي لا أراه ... ضعيف العقد ذو هم طويل

وفي العصر الأموي ظهر شعر الشكوى من الأوضاع السياسية والاجتماعية كذلك، حيث استطاع الشعراء تصوير آلامهم من الظلم والجور الذي وجد في مجتمعاتهم من خلال التشكي في أشعارهم. يقول الراعي النميري رافعا شكواه إلى عبد الملك بن مروان، وهو يوضح له ما يفعله السعاة الذين يجمعون الزكاة من ظلم الناس (النميري، 1416، ص 204):

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... شكوى إليك مُظِلَّةً وعويلا

من نازح كثرت إليك همومه ... لو يستطيع إلى اللقاء سبيلا

فالشاعر هنا يرفع مظلمته إلى أمير المؤمنين من خلال شكواه، حيث يستبين من خلالها شدة آلامه التي أوصلته للعويل من كثرة همومه ورزاياه، ثم يستدر عطف أمير المؤمنين في طلب لقاء به يشكو من خلاله هذه الهموم التي ألمت به.

ومما يظهر فيه أثر الإسلام في شعر هذا العصر، رفع الشكوى إلى الله، ومن ذلك قول جرير (جرير، د.ت: 1/ 75):

إلى الله أشكو أن بالغور حاجة ... وأخرى إذا أبصرت نجدا بداليا

إذا ما أراد الحي أن يترايلوا ... وحنت جمال البين حنت جماليا

مرحلة العصر العباسي:

كان لانفتاح الدولة الإسلامية على الممالك الأخرى أثر بالغ في تطور مسيرة الشعر العربي في العصر العباسي، فقد انتقل الشعر نحو مرحلة جديدة تطورت فيها أغراضه وموضوعاته، وكان ذلك امتدادا لسرعة عجلة التطور في كافة المجالات، وتقدم العلوم المختلفة وخاصة اللغوية منها والأدبية. وتبعا لذلك ظهرت الشكوى في ثوب جديد تحكي ما يواجهه الناس من حروب ونكبات، وكثرت مشاكل الفقر والظلم، وهنا كان الشعر بابا للشعراء يبثون شكواهم من خلاله عبر التظلم من الفساد والأحوال السياسية المتردية في البلاد. لذلك كان الشعراء "يضعون أحيانا في مقدمات قصائدهم شكوى مرة من الزمن وهمومه، وأن منهم من أفرد للشكوى بعض قصائد ومقطوعات" (ضيف، 1995: 4/ 241). وفي ذلك قال الفيلسوف الكندي شاكيا فساد الأحوال السياسية (ابن أبي أصيبعة، لم يُذكر، 288):

أنـــاف الـــذنابى عـــلى الأرؤس ... فغمـــض جفونـــك أو نكـــس
وضـائل سـوادك و اقـبض يـديك ... وفـي قعـــر بيتـــك فاســـتجلس
وعنـــد مليكـــك فابـــغ العلـــو ... وبالوحـــدة اليـــوم فاســـتأنس
فـإن الغنى في قلـوب الرجـال ... وإن التعـــــــزز بالأنفـــــــس
وكـائن تـرى مـن أخـي عسـرة ... غـــــني وذي ثـــــروة مفـــــلس
ومـــن قـــائم شخصـــه ميـــت ... عـــلى أنـــه بعـــد لـــم يـــرمس

"والكندي متشائم إلى أبعد حد، فقد اختلت موازين الحياة، فارتفع الوضيع وهبط الرفيع، ولم يعد هناك مفر من هذا البلاء ولا خلاص، فاعتزل الدنيا، وعش وحيدا بعيدا عن هذا النكر الذي يصطلي الناس ناره، ولا تؤمل في أن ينقشع هذا الظلام، فلم يعد لك من أمل سوى الالتجاء إلى مليكك وساحات بره. ويزدري الكندي ما في أيدي أصحاب الجاه والسلطان من مال تعافه النفوس الكريمة، فيقول إن الغنى غنى النفس العزيزة، وكم من فقير هو في حقيقته غني بقلبه وأخلاقه الرفيعة، وكم من غنى هو في حقيقته فقير بأخلاقه الذميمة، بل إنه ميت وإن بدا حيا، ميت لم يقبر ولم يوضع في رمسه"(ضيف، 1995: 4/ 242).

ويسير على هذا النهج أيضا بعض الشعراء أمثال ابن المعتز وابن الرومي، فعلى الرغم من نشأة ابن المعتز في بيئة مترفة، فإن الشكوى تكثر في ديوانه، يقول (ص 186):

لـم يبـق في العـيش غير البـؤس والنكـد ... فـاهرب إلى المـوت مـن هـم ومـن نكـد
مـــلأت يـــا دهـــر عينـي مـــن مكارهـــا ... يـــا دهـــر حســـبك قـــد أســـرفت فاقتصـــد

أما ابن الرومي" فلم يكن يوسع له الوزراء والكبراء في مجالسهم وعطاياهم، بل كانوا يلقونه في كثير من الأحوال بالحرمان والنكران، وكان يعرف في دقة عبقريته الشعرية، فضاق بالناس وضاق بالحياة، وكانت كما أسلفنا شرا ونكرا خالصين، فعاش يتجرعها غصصا، ولا مغيث ولا مخلص ولا معين" (ضيف، 1995: 242/4). فكان ذلك كفيلا أن يصنع نفسا متشائمة شاكية ترى الحياة بلون السواد. يقول مصورا بكاء الطفل حين الولادة (ابن الرومي، 2002، ص 273):

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

وإلا فما يبكيه منها و إنها لأفسح مما كان فيه وأرغد

إذا أبصر الدنيا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها مهدد

وللنفس أحوال تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد

فالحياة عنده آلام وأثقال، وبكاء الطفل لحظة ولادته دليل كاف على هذه الأوجاع في الدنيا، ثم يعلل هذه الفكرة بأن الواجب على هذا المولود أن يفرح لا أن يبكي؛ لأنه انتقل من الضيق إلى الفضاء الواسع الأرجاء، ولكنه كأنما استحضر ما سيلقاه من الألم والأوجاع التي ستنغص حياته ودنياه.

شكوى الحبيبة

جاءت شكوى الحبيبة في القصيدة الثامنة عشرة من الديوان، في مطلع قصيدة لعبد الله بن سلمة الغامدي، يقول فيها (الظبي، 1963، ص 102):

ألا صرمت حبائلنا جنوب ففرعنا ومال بها قضيب

نلحظ هنا أن الشاعر شكّل إيقاعا موسيقيا من خلال التصريع في مطلع القصيدة من خلال حرف الباء في البيت الأول، وهو يسهم بذلك في تكثيف موسيقاه الداخلية؛ تمهيدًا لاستقبال الرسالة الشعرية واستقرارها في ذهن المتلقي. ولعله بذلك يلفت انتباه القارئ أو السامع إلى مطلع القصيدة، ويشد انتباهه من خلال الموسيقى المستعملة في التصريع، تمهيدا لحوار ممتد بالشكوى يكون سببا في تخفيف حدة الألم والحزن.

"والصرم: القطع البائن، وعم بعضهم به القطع أي نوع كان، صرمه يصرمه صرما وصرما فانصرم، وقد قالوا صرم الحبل نفسه، وفي الحديث: لا يحل لمسلم أن يصارم مسلما فوق ثلاث، أي يهجره ويقطع مكالمته" (ابن منظور، 1414: 12، 334).

يشكو الشاعر هنا فراق حبيبته (جنوب) وأنها قطعت مودتها وصلتها به حين غادرته سالكة واديا بنجد اسمه قضيب، في الوقت الذي سلك فيه هو الاتجاه الآخر الذي وصفه بالعلو حين قال: ففرعنا، يريد

بذلك أنهما تفرقا وأخذ كل منهما طريقه في النأي عن الآخر. ولعل الشاعر باستعماله العلو له والدنو لها حين سلكت طريق الوادي أراد الثأر لنفسه من قطعها حبائل المودة والوصال، فهو بذلك يومئ إلى أنه -رغم الابتعاد والبين والشكوى- لا زال مرتفعا بنفسه نائيا بها عن موارد الضعف والذل. وسبب هذا التنائي منها أنها رأت فيه كبرا فهزئت به، ويظهر ذلك في قوله (ابن منظور، 1414: 12/ 103):

على ما أنها هزئت وقالت: هَنُوْنَ، أَجُنَّ؟ مَنْشَأُ ذَا قَرِيْبُ

وهو هنا يستعمل مفردة هزئت وكان بإمكانه أن يستعمل مفردة سخرت، فهي على الوزن الصرفي ذاته والبيت معها لا يتغير وزنه، ولعله آثر استعمال الأولى ليتسق معه الجرس الموسيقي لحرف الهاء بين مفردتي: هزئت وهنون، فتكرار الهاء في الكلمتين وهو الحرف الحلقي الضعيف المهموس الذي لا يحتاج قوة لإخراجه، يوحي بضعف هذا الرجل، سواء أكان هذا الضعف في جسده أم في عقله كما قالت.

وهنون جمع هن، وهو كناية عن إنسان (ابن منظور، 1414: 12/ 103)، يقول هنا: إنها تهزأ منه لما رأت من كبره، أو أنه جن من قريب وعهدها به العقل. "كأنها لما رأته يتصابى على الكبر قالت منكرة: أجن هذا الرجل حتى يتعاطى ما لا يحسن به؟ نعم منشؤه قريب فهو حقيق بأن يفعل ذلك" (التبريزي، 1407، ص 497). فيرد عليها بقوله (الظبي، 1963، ص 103):

فإن أكبر فإني في لداتي وعصر جنوب مقتبل قشيب

وإن أكبر فلا بأطير إصر يفارق عاتقي ذكر خشيب

يقول الشاعر هنا رادًّا على حبيبته جنوب حين عيرته بالكبر: إن كبرت سني فإن لي أقرانا كبروا مثلي، فهم لي أشباه وأنداد، ويقصد بذلك أنه لم يشب وحده من بين الناس. يريد الشاعر هنا أنه لم يبلغ من العمر مبلغا كبيرا، فهو لا يزال قشيبا، والقشيب الجديد، "قال الليث :سيف قشيب حديث الجلاء وثوب قشيب جديد، وكل شيء جديد قشيب" (الأزهري، 2001: 8/ 263)، فهو ضمن أقران يعيش معهم وهو فيهم، "ولو كانوا تقدموه وتخلف عنهم لاتسع طريق الضجر بغزله، فأما وهو في عداد أبناء وقته، والناشئين في عصره، فلا عجب في اقتدائه بهم، وتعاطيه اللهو معهم" (التبريزي، 1407، ص 498).

ثم يؤكد ما ذهب إليه في البيت الثاني حين يقول: وإن كبرت سني فأنا حامل السلاح يوم الجلاد، فهو يصف حاله بأن سيفه ملازم عنقه ومنحن عليه، وقد أخذ عهدا على نفسه بذلك.

والشاعر هنا يورد لفظة الكبر مستعملا الفعل المضارع (أكبر) ليدل بذلك على الفاعلية والحركة والديمومة والاستمرار، وهو ما يكفله الفعل المضارع للمفردة المستعملة، يريد بذلك طبيعة الأشياء وصيرورتها في هذه الحياة. نلمح كذلك تكراره للّفظة ذاتها (أكبر) وفي هذا انبعاث للمستوى الصوتي

المستعمل من خلال التكرار، فتكرار معنى الكبر في القصيدة يوحي بالألم الذي يجده الشاعر في نفسه بسبب ما وصفته الحبيبة به من كبر، وتصرفات لا تليق به وهو في هذه المرحلة العمرية.

والمتأمل كذلك في جانب التكرار للمفردة يلمح تكرار التبرير أيضا، ولعل في تكرار التبرير ملمحا لمكانة هذه المرأة من نفسه، فالمحب عادة ما يبحث عن إرضاء شريكه عن طريق تبريره للأخطاء التي تقع، والشاعر هنا يبرر أمرا لم يقع منه؛ فمرور الأيام وتصرم الأعوام سنة كونية لا تتبدل، وهي كفيلة بتقدم عمر الإنسان، ولكنه مع ذلك يقحم نفسه في تبريرات لأمور لم يكن له يدٌ فيها ولعل في هذا دليلا على شدة حبه لها.

شكوى الدهر

شعر التشكي من الدهر واضح بيّن عند الشعراء في مختلف العصور؛ وذلك" لقسوة الحياة ومشقتها ومعاناة الضنك...، وكان كثير منهم يلقي اللوم على الزمان ويصب حنقه على الدهر" (رشيد، 1410، ص 207)، وقد ظهرت شكوى الدهر ضمن بيتين اثنين في القصيدة الرابعة والأربعين، وهي قصيدة للأسود بن يعفر النهشلي، يقول في مطلعها (الظبي، 1963، ص 216):

نـام الخلـي ومـا أحـس رقـادي والهـم محتضـر لـدي وسـادي

يبدأ الشاعر قصيدته بمطلع موسيقي مصرع يستجلب فيه ذهن المتلقي؛ استعدادا لما سيبثه من شكوى، وفي الوقت ذاته يستعمل الشاعر مفردتين مترادفتين في الظاهر، ولكن دقة استعمالهما من الشاعر في موضعين مختلفين يوحي بتمكنه اللغوي؛ وذلك حين يستعمل النوم للخالي من الهموم، والرقاد له هو.

فلفظة النوم عادة ما تجيء على المستوى المعجمي لتدل على النوم المعتاد والذي يكون لفترة قصيرة كما ورد في القرآن: (وجعلنا نومكم سباتا)، أما لفظة الرقاد فتأتي لتدل على النوم الطويل، لذلك قال الله تعالى عن أصحاب الكهف في سورة الكهف: (وتحسبهم أيقاظا وهم رقود). فالشاعر هنا يريد الرقاد لا النوم، ذلك أن الإنسان الذي يعيش حياة خالية من الهموم والأكدار لا يحتاج إلى ما يحتاجه الشخص الذي تكدره الهموم والأحزان، فالثاني يحتاج أضعاف ما يحتاجه الأول؛ نتيجة السهر والتعب المتكرر الذي يعيشه في حياته.

ويصف الشاعر حاله مع الراحة والنوم بأنه لا يجد للنوم سبيلا، بل لا يحس ولا يجد له أثرا، وكيف يكون ذلك والهم حاضر يقض مضجعه كلما وضع رأسه على وسادته، بل كيف يجد طعم الراحة وقد هجمت عليه الهموم والأتراح من كل جانب، في الوقت الذي يجد فيه الخلي الخالي من الهموم والأكدار راحته وأنسه حين عاش بعيدا عن أكدار الدهر وأحزانه ومنغصاته.

ثم يصف حاله من جديد مع هذه الهموم وأنه من غير مرض أو سقم أخذ جسمه في الذبول والنحول من الهم والوجد، وأن السهر قد أكل منامه وراحته، فلا يكاد يجد الراحة نتيجة هذا الهم الذي أصاب فؤاده فمنعه الراحة والسكينة. وفي ذلك يقول (الظبي، 1963، ص 216):

من غير ما سقم ولكن شفني هم أراه قد أصاب فؤادي

ثم ينطلق الشاعر بعد ذلك في شكوى الدهر قائلا (الظبي، 1963، ص 216):

ومن الحوادث لا أبا لك أنني ضربت علي الأرض بالأسداد

يقول الشاعر: أنه جراء هذه الحوادث من الدهر كأنما سدت الطرق أمامي فلا أكاد أهتدي إلى وجهة صحيحة، فهو يذكر عجزه هنا لضعفه وكبره، ولأنه كان أعشى ثم عمي بعد ذلك. والأسداد هنا جمع سد، " والسد: ذهاب البصر، وهو منه. ابن الأعرابي: السدود العيون المفتوحة ولا تبصر بصرا قويا، يقال منه: عين سادة" (ابن منظور، 1414: 3/ 208).

والمتأمل للبيت هنا يلحظ أثر المستوى التركيبي المستعمل فيه من حيث تقديم الجار والمجرور، فقد قدم الشاعر حوادث الدهر من خلال قوله:(ومن الحوادث) لعظمها وقوة أثرها في ضعفه، ولذلك دلالات نفسية كبيرة في نفس الشاعر، كفيلة بأن تجعل هذه الحوادث مقدمة في أول البيت.

ثم يكرس الشاعر هذه الفكرة في نفس المتلقي حين يدعم ضعفه وكبره وضعف بصره بأنه لم يعد يهتدي إلى مرتفعات الأرض ومسيل أوديتها، يقول: إذا خفيت علي التلعة من الأرض، فما دونها أجدر أن يخفى علي (الأنباري، 1382، ص 446). وفي ذلك يقول (الظبي، 1963، ص 216):

لا أهتدي فيها لموضع تلعة بين العراق وبين أرض مراد

فهو لا يكاد جراء ضعفه وكبره وعجزه وضعف بصره أن يبصر شيئا، ثم وضع حدودا كبيرة لذلك ليبرهن على قوة هذا الضعف الذي يعيشه، وذلك حين جعل المسافة بين العراق واليمن التي هي أرض مراد، مكانا لهذا الضعف، وكأنه يقول: لو مشيت من العراق حتى أرض اليمن فإني لن أرى شيئا ولو كان مرتفعا أو منخفضا عن الأرض كالتلعة، فما بالك بما هو أصغر من ذلك.

شكوى الصد

"الصد: الإعراض والصدوف .صد عنه يصد ويصد صدا وصدودا :أعرض. ورجل صاد من قوم صداد، وامرأة صادة من نسوة صواد وصداد" (ابن منظور، 1414: 3/ 245). جاءت شكوى الصد ضمن أبيات لثعلبة بن صعبر بن خزاعي المازني يقول في مطلعها (الظبي، 1963، ص 128):

هل عند عمرة من بتات مسافر ذي حاجة متروح أو باكر

سـئم الإقـامة بعـد طـول ثوائـه وقضـى لبـانته فليـس بنـاظر

يقول الشاعر إنه ما زال يرجو أن تودعه حبيبته عمرة عند سفره بما قد تجهزه به من زاد ومتاع بعد أن سئم ومل من إقامته بعد طول بقائه وقضاء حاجته فهو ليس بمنتظر لشيء بعد ذلك. وكأن الشاعر يتوسل وداعها له قبل أن يغادر مكانه.

والنص هنا يتوسل بالطباق على المستوى الدلالي في لفظتي الرواح والبكور في البيت الأول، في صورة تزيد الاتساق مع فكرة السآمة التي طرحها الشاعر في البيت الثاني، فليس المقصود من ذكر الرواح والبكور وقت الرحيل وزمنه، وإنما هي السآمة والضجر من المكان وسرعة الانتقال.

وكذلك يستعمل الشاعر مع مفردتي الرواح والبكور حرف العطف (أو) الذي عادة ما يفيد تساوي الأمور، وكأن أمر الرحيل عن المكان أصبح حتما عند الشاعر ولا يضيره الوقت في ذلك، سواء أكان صباحا أم مساء، فالواقع أن الشاعر سئم الإقامة في هذا المكان وينوي الرحيل عنه في أي وقت.

لكنه في الوقت نفسه لم يتأمل كثيرا هذا الوداع وهذا الوعد لأن الخلف بالوعد من صفاتها فهي ذات دهاء وبصر بالأمور، وفي معنى آخر للأرب: أي أنها بخيلة وضنينة بالوصل فلا يكاد يصدقها ولو حلفت بدماء البدن فلن يصدق يمينها التي تحلف بها. ويتجلى ذلك في قوله (الظبي، 1963):

لعـــدات ذي أرب ولا لمواعـــد خلـف ولـو حلفـت بأسـحم مـائر

ثم يعود الشاعر ليؤكد المعنى ذاته من خلال قوله (الظبي، 1963، ص 129):

وعـدتك ثمـت أخلفـت موعودهـا ولعـل مـا منعتـك لـيس بضـائر

ولكنه من خلال هذا البيت يبين عزته وأنفته من الغضب والحزن لمثل هذا الخلف في الموعد فهو لن يضيره شيئا؛ لأنه قد اعتاد أن الغواني -وهن اللواتي غنين بجمالهن عن أن يوصفن، أو غنين بحسنهن عما قد يجملهن من الحلي- لا يدمن على حال من الشدة واللين، فهن سريعات التقلب في مشاعرهن تجاه حبيب أو صديق. وذلك في قوله (الظبي، 1963):

وأرى الغـواني لا يـدوم وصـالها أبـدا علـى عسـر ولا لمياسـر

ثم يختم الشاعر شكواه من الصد بحكمة يريد بها أن الخليل إذا صدك أو جفاك، فاقطع حاجتك له بفراقه وانقطاع وصله بسفر أو رحيل أو غياب، بناقة كحد السيف في مضائها ونجابتها، في إشارة منه إلى سرعة الانقطاع والرحيل عن هذا الخليل، وقطع حبائل المودة والوصل. ويظهر ذلك في قوله (الظبي، 1963):

وإذا خليلـك لـم يـدم لـك وصـله فاقطـع لبـانته بحـرف ضـامر

والمتأمل هنا يلمح الانزياح في التركيب النحوي بتقديم شبه الجملة – الجار والمجرور – في قوله: "يدم لك وصله" ليسترعي انتباه السامع بقصر الوصل على الخليل فقط، فأصل الجملة (لم يدم وصله لك) وهي بهذا التركيب لا تمنع الوصل مع غير الخليل، ولكنه أراد بإيراد التركيب في البيت معنى آخر غير دوام الوصل فقط، وإنما اختصاصه به أيضا.

شكوى ابن العم

من "أكثر أنواع الشكوى وقعا في النفوس، تلك التي تحدث بين الأقارب، فمن المفروض أن تكون العواطف بين الأقارب متماسكة قوية، وإذا أحس الشاعر بكدرها عبر عن ذلك بحزن شديد" (الباخرزي، 1405: 2/459).

ومن ذلك شكوى ابن العم التي جاءت في الديوان مطلع قصيدة لذي الإصبع العدواني يقول فيها (الظبي، 1963، ص 160):

لي ابن عم على ما كان من خلق مختلفان فأقليه ويقليني

يظهر الانزياح في هذا البيت من خلال مطلعه حين يستعمل الشاعر شبه الجملة في غير موضعها فيبدأ بها الجملة، قاصدا بذلك تعيين شخص بعينه دون الناس وهو ابن عمه، واصفا بعد ذلك ما يحدث بينهما من أمور.

فيذكر الشاعر في هذا البيت ابن عمه الذي كان يخالقه في صفاته، والمخالقة المعاشرة، يقال:" خالق فلانا :عاشره على أخلاقه، عاشره بخلق حسن" (عمر، 1424: 1/ 688). يريد بذلك أنهما -على الرغم من تخالقهما وحسن معشرهما- كانا مختلفين أحيانا، أي: يصيبهما ما يصيب أي متحابين من سوء فهم وخطأ وما شاكله. ويحدث أن أبغضه ويبغضني نتيجة هذا الذي قد يحدث بيننا.

ونلحظ هنا على المستوى المعجمي استعمال الشاعر لفظة (أقليه) دون (أبغضه) مع أن المعنيين يصبان في معنى الكراهة، إلا أن القِلَى يزيد عن البغض في الكراهة، كما ذكر ذلك "ابن سيده : قليته قلى وقلاء ومقلية أبغضته وكرهته **غاية الكراهة**".

ثم يبين ما عابهما هو وابن عمه حين اختلفا وتفرق أمرهما، وذلك في قوله (الظبي، 1963، ص 160):

أزرى بنا أننا شالت نعامتنا فخالني دونه وخلته دوني

أزرى من الزري، "وزريت عليه وزرى عليه، بالفتح، زريا وزراية ومزرية ومزراة وزريانا :عابه وعاتبه. وزرى عليه عمله إذا عابه وعنفه . قال الليث : وإذا أدخل على أخيه عيبا فقد أزرى به وهو مزرى به .ابن الأعرابي : زارى فلان فلانا إذا عاتبه" (ابن منظور، 1414: 14/ 356).

وفي قوله شالت نعامتنا معنى الرحيل والبين، "يقال: شالت نعامتهم أي تفرقوا وذهبوا؛ لأن النعامة كما سبق ذكرها موصوفة بالخفة وسرعة الذهاب والهرب. ويقال أيضا: خفت نعامتهم وزف رألهم وقيل النعامة جماعة القوم" (الزمخشري، 1987: 2/ 125). ثم يبين نتيجة هذا الافتراق في النفوس قبل الأجساد أنه لم يسع الواحد منهما أن يطمئن لابن عمه. وقد يكون المعنى أن كل واحد منهما صار يستصغر الآخر ويتكبر عليه، وذلك في قوله: فخالني دونه وخلته دوني.

ثم يستعمل الشاعر النداء بعد ذلك مسترعيا انتباه ابن عمه لما سيأتي من إيضاح لأمور أراد الشاعر توكيدها في نفس المتلقي وهو ابن عمه في المقام الأول، فقال (الظبي، 1963، ص 160):

يا عمرو إن لا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حيث تقول الهامة اسقوني

لاه ابن عمك لا أفضلت في نسب عني ولا أنت ديباني فتخزوني

ولا تقوت عيالي يوم مسغبة ولا بنفسك في العزاء تكفيني

يقول له مهددا بعد ندائه: إن لم تترك شتمي وانتقاصي فإنني سأضربك على هامتك حيث يطلب الشراب من العطش، والهامة الرأس. "يقول الأصمعي: العرب تقول العطش في الرأس" (ابن فارس، 1986، ص 197). "وكانت العرب تزعم أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره، تقول: اسقوني اسقوني، فإذا أدرك بثأره طارت" (البغدادي، 1997: 7/ 186). ثم يبدأ بعد ذلك في تعداد صفاته ومآثره التي لا تدع طريقا لانتقاص ابن عمه له، فهو يقسم بالله أن ابن عمه هذا لا يفضله في نسب، ولا يفضله في مال يسوسه من خلاله ويدبر أمره. ثم يقول: ولا تصرف على أهلي في يوم المجاعة، ولا أنت تكفيني وقت شدتي، ثم يؤكد بعد ذلك موقفه من هذه الأمور الآنفة الذكر حين يقول (الظبي، 1963، ص 160):

إني لعمرك ما بابي بذي غلق عن الصديق ولا خيري بممنون

ولا لساني على الأدنى بمنطلق بالفاحشات ولا فتكي بمأمون

بعد أن أقسم الشاعر في المرة الأولى بأن ابن عمه لا يفضله في نسب ولا مال، وأنه غير محتاج لابن عمه كي يقوت عياله يوم الفقر والمسغبة، عاد ليستعمل القسم مرة أخرى في دلالة واضحة على تأكيد موقفه في الاستغناء عن ابن عمه إن أراد هو ذلك. فالشاعر يبين موقفه هنا بأنه لا يدخر عن صاحبه شيئا، وأن خيره غير منقطع، بل هو مستمر.

وفي معنى آخر للفظة (ممنون) كأنه يريد بأنه لا يمن على صاحبه بخيره حين يقف معه مواقف المروءة والشهامة. ثم يثني منقبته الأخيرة بأن لسانه ليس بالفاحش البذيء خاصة على الضعفاء. وإذا تأملنا الأبيات السابقة فإننا نلحظ تكرار النفي في غير موضع من النص (**ولا أنت، ولا تقوت، ولا بنفسك، ما بابي،**

ولا خيري، ولا لساني، ولا فتكي) وقد استعمل الشاعر جميع هذه الأدوات وكرر استعمالها ليؤكد معنى الذب عن عرضه وخصاله النبيلة التي لا تدع مجالا ليفضله ابن عمه فيه.

وهكذا رسم لنا الشاعر صورة الشكوى من ابن عمه الذي رأى خذلانه، من خلال تصويره مواقف الخذلان ثم رده عليها بما يرى في نفسه من صفات الشهامة وخلال المروءة ورفعة النسب.

شكوى الكبر

"يعد الشيب والكبر من أكثر العوامل المثيرة للشجن عند الإنسان؛ لأنه إشارة إلى الهموم ودنو الأجل، فيكون الإنسان إزاءه محكوما بذهاب الشباب والضعف" (مجيد، 1988، ص 120).

وقد ظهرت شكوى الكبر في المفضليات خلال موضعين، أما الأول ففي قصيدة عبدة بن الطبيب حين يقول (الظبي، 1963، 145):

أبني إني قد كبرت ورابني بصري، وفي لمصلح مستمتع

يستعمل الشاعر هنا صيغة التصغير على المستوى الصرفي؛ تحبّبا وتعلقا بأبنائه وذلك في قوله (أبنيّ)؛ استجلابًا لعطفهم كي يرعوا أسماعهم لما يقول، وهو في الوقت ذاته يؤكد معنى الكبر في نفسه وأن العمر قد مضى به، حين يستعمل (قد) التي تفيد التوكيد مع الفعل الماضي (كبرت) في إشارة منه إلى ما يعيشه من لحظات الضعف والانكسار.

فهو يخاطب بنيه أنه قد أسن ورابه بصره وشك في قدرته على الإبصار، ولكنه صاحب رأي ومشورة وعلم لمن أراد أن يستفيد من آرائه وعلمه وعقله، فهو ذو عقل ورأي لمن استصلحه واستمتع بعقله ورأيه. ثم يبين لهم بعد ذلك مآثره التي عد منها أربعا، وذلك حين يقول (الظبي، 1963، 146):

فلئن هلكت لقد تركت مساعيا تبقى لكم منها مآثر أربع

يعاود الشاعر استعمال صيغ التأكيد، وهنا يستعمل (لقد) ليؤكد مكانته في نفوس أبنائه من خلال ما يتلوه على مسامعهم من مآثر سينعمون بها بعد رحيله، ويستعمل كذلك التقديم والتأخير على المستوى التركيبي حين يؤخر الفاعل في قوله **(تبقى لكم منها مآثر أربع)** ليفيد الحصر في هذه المآثر التي سيذكرها لهم، وإلا فإن مآثره كثيرة لا حصر لها.

يقول لهم: إن أهلك فلقد تركت لكم من المكارم ما تفخرون به بعدي، ثم بدأ بتعداد هذه المكارم والأخلاق التي ستبقى لبنيه من بعده، وأولها الصيت والشرف الذي سينفعهم بعد رحيله، فوراثة الصيت والشرف بين القبائل مظنة التقدم والسؤدد، وفي ذلك يقول (الظبي، 1963):

ذكر إذا ذكر الكرام يزينكم وراثة الحسب المقدم تنفع

ثم عدد مكارمه بقوله (الظبي، 1963، 145):

ومقـــام أيـــام لهـــن فضـــيلة عنـد الحفيظـة والمجـامع تجمـع

ولهى مـن الكسـب الـذي يغنـيكم يومـا إذا احتصـر النفـوس المطمـع

ونصـيحة في الصـدر صـادرة لكـم مـا دمـت أبصـر في الرجـال وأسـمع

يقول إني تركت لكم أيضا مواقف نبيلة كنت قد وقفتها بين القبائل وفي مجامع الناس، وقد كنت أعطي العطايا في الوقت الذي تكف فيه أيدي الناس طمعا، وآخر المآثر ما يأتيكم من نصيحة مني حال حياتي معكم ما دمت أسمع وأبصر.

أما الموضع الثاني الذي جاء فيه شكوى الكبر فهو قول الأسود بن يعفر النهشلي (الظبي، 1963، 218):

إمـــا تريـنـي قـــد بليـــت وغاضـــني مـا نيـل مـن بصـري ومـن أجـلادي

وعصـيت أصحاب الصـبابة والصـبا وأطعـــت عـــاذلتي ولان قيـــادي

قوله غاضني من الغيض "وغاض ثمن السلعة يغيض :نقص، وغاضه وغيضه، ومن ذلك قوله تعالى:" وما تغيض الأرحام وما تزداد"؛ قال الزجاج :معناه ما نقص الحمل عن تسعة أشهر وما زاد على التسعة، وقيل :ما نقص عن أن يتم حتى يموت وما زاد حتى يتم الحمل" (ابن منظور، 1414: 7، 201).

إذا تأملنا البيتين السابقين سنلحظ كلمات لم تتكرر بعينها، ولكنها تآلفت وتقاربت في جرسها الموسيقي وبنيتها الصوتية (بصري/عصيت/أصحاب/الصبابة/الصبا) فالذي يجمع بينها هو تضمنها حرف الصاد، وهو حرف مهموس، وتكرار هذه الحروف في المفردات المتقاربة عادة ما يتجاوز المعنى المعجمي للمفردات التي ترد فيها، لتعبر عن الحالة النفسية التي يعيشها الشاعر، وهو هنا يعيش حالة من الضعف والانكسار.

فالشاعر هنا يذكر موقفه من الكبر ويقول: إن ضعفت ونقص من لحمي وبدني، وضعف خلقي وشخصي، وصرت آخذ ما تبقى من الصبابة (وهي ما يبقى متعلقا في الإناء إذا صب ما فيه فيكب الإناء ليقطر) وأصبحت متفجعا على شبابي ولهوي ولعبي، فإني مع ذلك أذهب إلى بائعي الخمر وهم التجار، مرجلا شعري، قلقا بمالي حتى أنفقه، وجمع الجيد وهو العنق في قوله أجيادي يقصد بذلك الجيد وما حوله، وقوله لينا أجيادي كناية عن الشباب أو ميل عنقه من السكر. وفي ذلك يقول (ابن منظور، 1414):

فلقـــد أروح علـى التجـــار مـــرجلا مـــذلا بمـــالي لينـــا أجيـــادي

الخاتمة

وأخيرا فإن الشكوى في الشعر العربي مهما اختلفت مجالاتها فإنها تظل تنبعث من مشكلات مشتركة من الألم والحسرة، وتخرج على صور مختلفة من العتاب والسآمة والكدر. والدراسة -مع كونها لم تأت بالطويلة المستقصية- لم تنفرد بشاعر دون آخر، ولا بزمن دون غيره، وإنما جاءت متنوعة الأزمنة متعددة الشعراء؛ ذلك أنها اختصت بمدونة خاصة بالمختارات الشعرية عبر أزمنة مختلفة وشعراء كثر، بل إن اختيارات المفضل كانت أجود ما قيل في أغراض شعرية مختلفة كان من ضمنها غرض الشكوى محل الدراسة.

وقد يحسب للدراسة تنوع صور الشكوى، فنجد من يشكو حبيبة أو دهرا أو قريبا، بل امتد الأمر لتكون الشكوى من الأحوال السياسية والمجتمعية في عصر معين.

والمتتبع لمقطوعات الشكوى عامة إما أن يجدها موضوعا مستقلا، أو متداخلة مع أغراض أخرى ضمن قصيدة واحدة، وسواء أكان في هذا المضمار أم في ذاك فإن الشكوى تبقى معاناة يكابدها الشاعر تخرج آثارها خلال قصيدة متكاملة أو خلال مقطوعة مختلفة الأطوال، فالأبيات وإن كانت ضمن قصيدة غير مستقلة بالشكوى، فإن أثر الألم والحسرة الباعثين على الشكوى سنجده ظاهرا لا محالة في الأبيات المقصودة، ولعل براعة شاعر ما تظهر من خلال سلاسة الانتقالات من غرض إلى آخر عبر قصيدة واحدة.

إن شعر الشكوى يسجل صدق معاناة الشاعر دون زيف أو خداع، فبواعثه كفيلة باستدرار ما يعالجه الشاعر من ألم وحسرة تكفلان نقل تجربة شعرية صادقة إلى المتلقي، إذ يتوافر للشكوى ما يتوافر للرثاء من بواعث تعكس أوجاع النفس البشرية من خلال أحزانها وآلامها.

المراجع

الأزهري، محمد بن أحمد. (2001). *تهذيب اللغة* (ط.1). دار إحياء التراث العربي.

إسماعيل، عبد المنعم. (1401). *نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية* (ط.1). مكتبة الفلاح.

ابن أبي أصيبعة، أحمد بن القاسم. (لم يُذكر). *عيون الأنباء في طبقات الأطباء* (نزار رضا، تحقيق ط.1)، دار مكتبة الحياة.

الأنباري، أبو بكر محمد. (1382). *شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات* (عبد السلام هارون، تحقيق ط.5)، دار المعارف.

الباخرزي، أبو الحسن. (1405). *دمية القصر وعصرة أهل العصر* (سامي مكي العاني، تحقيق ط.2)، مكتبة دار العروبة للنشر والتوزيع.

باقازي، عبد الله أحمد. (1987). *رثاء النفس في الشعر العربي*، المكتبة الفيصلية.

البغدادي، عبد القادر بن عمر. (1997). *خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب* (ط.4). مكتبة الخانجي.

التبريزي، الخطيب. (1407). *شرح اختيارات المفضل* (فخر الدين قباوه، تحقيق ط.2)، دار الكتب العلمية.

التبريزي، الخطيب. (1412). *شرح ديوان عنترة* (ط.1). دار الكتاب العربي.

التميمي، قحطان رشيد. (2021). الشكوى في شعر صدر الإسلام، *مجلة الآداب*، *2*(14)، 716-728.

جرير. جرير بن عطية. (1986). *ديوان جرير بشرح محمد بن حبيب* (محمد بن حبيب، شرح)، (نعمان محمد، تحقيق ط.3) دار المعارف.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (1401). *تاريخ ابن خلدون* (ط.1)، دار الفكر.

الدبل، محمد سعد. (1431). *من بدائع الأدب الإسلامي* (ط.2). مكتبة الملك فهد.

رشيد، ناظم. (1410). *الأدب العربي في العصر العباسي* (ط.1). دار الكتب للطباعة والنشر.

رشيدو، عدنان مشعل. (1995). الشكوى عند شعراء القرن الخامس، *مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية*، *3*(14)، 159-171.

ابن الرومي. (2002). *ديوان* (أحمد حسن بسج، شرح ط.3)، دار الكتب العلمية.

الزمخشري. (1987). *المستقصى في أمثال العرب* (ط.2). دار الكتب العلمية.

ابن أبي سلمى، زهير. (1408). *ديوان زهير بن أبي سلمى* (علي حسن فاعور، شرح ط.1)، دار الكتب العلمية.

الشكعة، مصطفى. (1418). *رحلة الشعر من الأموية إلى العباسية* (ط.1). الدار المصرية اللبنانية.

الشكعة، مصطفى. (د.ت). *فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين*، مكتبة الأنجلو المصرية.

ضيف، شوقي. (1995). *تاريخ الأدب العربي* (ط.1). دار المعارف.

الظبي، المفضل. (1963). *المفضليات* (أحمد محمد شاكر، وعبد السلام هارون، تحقيق ط.6)، دار المعارف.

العاني، سامي مكي. (1410). *كعب بن مالك الأنصاري شاعر العقيدة الإسلامية* (ط.2)، دار القلم.

عمر، أحمد مختار. (1424). *معجم اللغة العربية المعاصرة* (ط.1). عالم الكتب.

ابن فارس، أحمد. (1986). *مجمل اللغة* (ط.2). مؤسسة الرسالة.

مجيد، جواد رشيد. (1988). *الشكوى في شعر القرن الرابع الهجري* [رسالة ماجستير غير منشورة]، الجامعة المستنصرية، العراق.

ابن المعتز، عبد الله. (لم يُذكر). *ديوان ابن المعتز* (ط.1). دار صادر.

ابن منظور. (1414). *لسان العرب* (ط.3)، دار صادر.

النميري، الراعي. (1416). *ديوان*، (واضح الصمد، شرح ط.1)، دار الجيل.

هلال، محمد غنيمي. (1973). *النقد الأدبي الحديث*، دار الثقافة ودار العودة.

يعقوب، عبدالكريم. (1430). الشكوى من المرأة في شعر الأحوص، *مجلة جامعة تشرين*، *23*(1)، 134- 150.

Arabic References

al-Azharī, Muḥammad ibn Aḥmad. (2001). *Tahdhīb al-lughah* (1st ed.). Dār Iḥyā' al-Turāth al-ʿArabī.

Ismāʿīl, ʿAbd al-Munʿim. (1401). *Naẓarīyat al-adab wa-manāhij al-Dirāsāt al-adabīyah* (1st ed.). Maktabat al-Falāḥ.

Ibn Abī Uṣaybiʿah, Aḥmad ibn al-Qāsim. (N.D). *ʿUyūn al-Anbāʾ fī Ṭabaqāt al-aṭibbāʾ* (Nizār Riḍā, taḥqīq 1st ed.), Dār Maktabat al-ḥayāh.

al-Anbārī, Abū Bakr Muḥammad. (1382). *sharḥ al-qaṣāʾid al-sabʿ al-Ṭawwāl al-jāhilīyāt* (ʿAbd al-Salām Hārūn, taḥqīq 5th ed.), Dār al-Maʿārif.

al-Bākharzī, Abū al-Ḥasan. (1405). *Dumīyat al-qaṣr wa-ʿuṣrat ahl al-ʿaṣr* (Sāmī Makkī al-ʿĀnī, taḥqīq 2nd.), Maktabat Dār al-ʿUrūbah lil-Nashr wa-al-Tawzīʿ.

Bāqāzī, ʿAbd Allāh Aḥmad. (1987). *rithāʾ al-nafs fī al-shiʿr al-ʿArabī*, al-Maktabah al-Fayṣalīyah.

al-Baghdādī, ʿAbd al-Qādir ibn ʿUmar. (1997). *Khizānat al-adab wa-lubb Lubāb Lisān al-ʿArab* (4th ed.). Maktabat al-Khānjī.

al-Tabrīzī, al-Khaṭīb. (1407). *sharḥ Ikhtiyārāt al-Mufaḍḍal* (Fakhr al-Dīn qbāwh, taḥqīq 2nd ed.), Dār al-Kutub al-ʿIlmīyah.

al-Tabrīzī, al-Khaṭīb. (1412). *sharḥ Dīwān ʿAntarah* (1st ed.). Dār al-Kitāb al-ʿArabī.

al-Tamīmī, Qaḥṭān Rashīd. (2021). al-shakwá fī shiʿr Ṣadr al-Islām, *Majallat al-Ādāb, 2* (14), 716-728.

Jarīr. Jarīr ibn ʿAṭīyah. (1986). *Dīwān Jarīr bi-sharḥ Muḥammad ibn Ḥabīb* (Muḥammad ibn Ḥabīb, sharḥ), (Nuʿmān Muḥammad, taḥqīq 3rd ed.) Dār al-Maʿārif.

Ibn Khaldūn, ʿAbd al-Raḥmān. (1401). *Tārīkh Ibn Khaldūn* (1st ed.), Dār al-Fikr.

al-Dabil, Muḥammad Saʿd. (1431). *min Badāʾiʿ al-adab al-Islāmī* (2nd ed.). Maktabat al-Malik Fahd.

Rashīd, Nāẓim. (1410). *al-adab al-ʿArabī fī al-ʿaṣr al-ʿAbbāsī* (1st ed.). Dār al-Kutub lil-Ṭibāʿah wa-al-Nashr.

Rshydw, ʿAdnān Mashʿal. (1995). al-shakwá ʿinda shuʿarāʾ al-qarn al-khāmis, *Majallat Jāmiʿat al-Anbār lil-ʿUlūm al-Insānīyah, 3* (14), 159-171.

Ibn al-Rūmī. (2002). *Dīwān* (Aḥmad Ḥasan Basaj, sharḥ 3rd ed.), Dār al-Kutub al-ʿIlmīyah.

al-Zamakhsharī. (1987). *al-Mustaqṣá fī Amthāl al-ʿArab* (2nd ed.). Dār al-Kutub al-ʿIlmīyah.

Ibn Abī Salmá, Zuhayr. (1408). *Dīwān Zuhayr ibn Abī Salmá* (ʿAlī Ḥasan Fāʿūr, sharḥ 1st ed.), Dār al-Kutub al-ʿIlmīyah.

al-Shakʿah, Muṣṭafá. (1418). *Riḥlat al-shiʿr min al-Umawīyah ilá al-ʿAbbāsīyah* (1st ed.). al-Dār al-Miṣrīyah al-Lubnānīyah.

al-Shakʿah, Muṣṭafá. (N. D). *Funūn al-shiʿr fī mujtamaʿ al-Ḥamdānīyīn*, Maktabat al-Anjlū al-Miṣrīyah.

Ḍayf, Shawqī. (1995). *Tārīkh al-adab al-ʿArabī* (1st ed.). Dār al-Maʿārif.

Alẓby, al-Mufaḍḍal. (1963). *al-Mufaḍḍalīyāt* (Aḥmad Muḥammad Shākir, wa-ʿAbd al-Salām Hārūn, taḥqīq 6th ed.), Dār al-Maʿārif.

al-ʿĀnī, Sāmī Makkī. (1410). *Kaʿb ibn Mālik al-Anṣārī shāʿir al-ʿaqīdah al-Islāmīyah* (2nd ed.), Dār al-Qalam.

ʿUmar, Aḥmad Mukhtār. (1424). *Muʿjam al-lughah al-ʿArabīyah al-muʿāṣirah* (1st ed.). ʿĀlam al-Kutub.

Ibn Fāris, Aḥmad. (1986). *Mujmal al-lughah* (2nd ed.). Mu'assasat al-Risālah.

Majīd, Jawād Rashīd. (1988). *al-shakwá fī shiʿr al-qarn al-rābiʿ al-Hijrī* [Risālat mājistīr ghayr manshūrah], al-Jāmiʿah al-Mustanṣirīyah, al-ʿIrāq.

Ibn al-Muʿtazz, ʿAbd Allāh. (lam yudhkr). *Dīwān Ibn al-Muʿtazz* (1st ed.). Dār Ṣādir.

Ibn manẓūr. (1414). *Lisān al-ʿArab* (3rd ed.), Dār Ṣādir.

al-Numayrī, al-Rāʿī. (1416). *Dīwān*, (Wāḍiḥ al-Ṣamad, sharḥ Ṭ. 1), Dār al-Jīl.

Hilāl, Muḥammad Ghunaymī. (1973). *al-naqd al-Adabī al-ḥadīth*, Dār al-Thaqāfah wa-Dār al-ʿAwdah.

Yaʿqūb, ʿAbd-al-Karīm. (1430). al-shakwá min al-marʾah fī shiʿr al-Ahwas, *Majallat Jāmiʿat Tishrīn, 23* (1), 134-150.